الغنيّ ولعازر

"وكان غني... وكان فقير اسمه لعازر"

الغنى والفقر نقيضان لا يلتقيان والواحد لا يحبّ الآخر، كالليل والنهار، والنور والظلمة. ومنذ أن كان الإنسان في جماعات كانت مسألة الفوارق الطبقية تعذّب مجتمعه. وعمر الصراع بين الفقر والغنى، وبين الفقير والغني هو عمر المجتمع البشريّ. لقد تبدّلت أشكال الحلول، وحتى اليوم لم نجد أنّ الأمر قد تمّ حلّه. السياسة وعلم الاجتماع والأديان كلّها تدور في مفاهيمها وتعاليمها وحلولها حول محور نزع هذا الصراع أو لدى البعض تنظيمه. ولطالما كانت الثورات من أجل حقوق الفقراء، والعديد منها لم يحّل مسألة هذه الفوارق بقدر ما بدّل الطبقات، فقلب الأغنياء إلى فقراء ونصّب الفقراء أغنياء وبقي الصراع الطبقي!

النظرة السريعة إلى مجتمعاتنا والعولمة هذه الأيّام لا تطمئن بحلّ هذا الصراع أو قد تنبئ بتعاظمه. فما هو الحلّ المسيحيّ؟ هذا المثل الذي أعطاه يسوع يعالج هذا الصراع. لذلك يعرض لنا غنيّاً وفقيراً، وغنياً في ترفٍ وتطرّف الغنى، وفقيراً في تلف وتطرّف العوز تلحس الكلاب جروحه. وذلك ليوضح الصراع في صوره القصوى.

في سفر الأمثال (٢٤، ٨) يبدو أن الحكمة تكمن في "الوسط" دون التطرف. فالغنى والفقر هما الطرفان وخير الأمور الوسط. لذلك كانت صلاة المؤمن "يا ربّ، لا تعطِني غنىً ولا فقراً، هبْني كفايتي والضروريات". لكن نظرة سريعة للحياة تؤكد أن عوامل عديدة منها الفوارق الطبيعيّة أو غياب العدالة الاجتماعيّة أو ضعف الأنظمة السياسية والاقتصادية الخ... تجعل أغلبية البشر يتوزعون على الطرفين وليس في حلول الوسط. فالبعض أغنياء والأغلبية فقراء والوسط قلائل. إذن حين نوجد في غنى أو عندما نحيا في فقر كيف نتعاطى مسيحيّاً في مثل هذه الظروف.

يبدو أن المثل يدين الغني إدانةً قاسية لا توبة فيها ولا رجعة. ويجعل الفقير في غبطة أبدية بعد أن نال عذابه على الأرض. فما الخطأ الذي ارتكبه هذا الغني وما هي فضيلة هذا الفقير حتّى نالا هاتين المكافأتين المتعارضتين تعارض الغنى والفقر؟

خطأ الغني، بالطبع، لم يكن غناه. والمسيحيّة لا ترفض الغنى أو تطوّب العوز. فعندما طوّب يسوع الفقر أضاف "طوبى للفقراء بالروح". وهناك أمثلة عديدة من القدّيسين الذين عاشوا في غنى ووفرة من الخيرات بدءاً بابراهيم أبي المؤمنين. فالفقر بالروح هو غير "العوز". ما أدان هذا الغني هو الخطأ في "تبرير" غناه أولاً. وأنه لم يكن يرى للعازر أي حقّ في مشاركته "ممتلكاته" هو. لقد استفاد هو من غناه ومما وهبه الله من خيرات من أجل "تنعّمه" وبذخه أنانياً. ولم يشعر أن هذا الأخ المرميّ عند بابه يستحق منه أي عطف، خطأ الغني هو قساوة القلب، أي انعدام الإنسانيّة من داخله. فماذا ينتفع الإنسان عندما يربح مال العالم كلّه ويخسر نفسه - إنسانيّته؟

"الإحسان" كلمة مقدسة لدى كثيرين وهي كذلك. لكنّها بالوقت ذاته تافهة مسيحيّاً، لأن المسيحيّة لا تؤمن "بالإحسان" كما يمارس مرّات عديدة على أنّه تنازل أو تبديد مما نملك لفقراء لا حقّ لهم بمالنا ولكن من "حسننا" نهبهم بعض "إحساناتنا". "الإحسان" هو المشاركة والتألم مع المحتاجين- ليس على أننا نعطيهم "مما لنا" بل "مما لهم".

لا ملكيّة في المسيحيّة، المسيحيّ هو مجرّد "مدبّر" أو "وكيل" على الخيرات التي لا يهبها إلا الله، حين تكون هذه الخيرات وفيرة - "غنى" أو تكون قليلة- "فقراً". فهو عندما يعطي لا يبذّر من "حسنه" "حسنات" على "غير مستحقين" من الفقراء. إنّما يعيد توزيع الخيرات لأصحاب الحقوق. المسيحيّ الغني هو مدبّر لخيرات وفيرة راتبه من سيده وربّه يجب ألا يتعدّى "خبزنا كفاف يومنا". الغني الصالح هو المدبّر الصالح الذي لا "يتحسّن" على الفقراء إنّما يوزع "بعدالة" خيرات الله على أولاد الله. كان خطأ هذا الغني أنّه اعتبر كلّ الخيرات التي وضعها الله بين يديه له وخاصّته ولم يعرف أنّها وديعة وأمانة قد منّها الله عليه ليوزعها لأصحابها- إخوته البشر - "فللربّ الأرض وكلّ ما فيها" (١كور ١، ٢٦).

ما نعرفه من الكتاب المقدس أن الخالق وبالتالي المالك هو الله وحده. وما أعطي للإنسان كان فلاحة الفردوس والعمل فيه (تك ٢، ٥)، فالمالك هو الله والوكيل والمدبّر هو الإنسان. المسيحيّ الغني بالنهاية هو "أمين" على رعاية الأموال والخيرات المودعة بين يديه، غنى كهذا يبرّر ولا يدين. لذلك يقول الذهبيّ الفم: لماذا يذكر يسوع في المثل أن الغنّي المعذّب رأى من جهنم الفقير لعازر في أحضان إبراهيم؟ ويجيب فمّ الذهب لأن إبراهيم كان غنياً كريماً وصالحاً، أي لكي يرى الغني القاسي في مثلنا هذا خطأه والصورة التي كان يجب أن يكون عليها.

وهل للفقير حقّ في اقتسام أموال الغني؟ ومن نظرة سياسية أو اجتماعية الجواب واضح: لا، يمكننا أن نفترض أو نتمنى، في فلسفتنا الاجتماعيّة، أن يشفق الغني ويحسن إلى الفقير ولكن ليس من السهل أن نتصوّر أن للفقير حقّاً في اقتسام أموال الغني.

عديدون يتعلّلون بكلام بولس الرسول مردّدين كلماته قائلين: "من لا يعمل لا يأكل"، فالغني عمل كثيراً لذلك يأكل كثيراً حتّى أحياناً يحقّ له أن يأكل حقوق الآخرين بحسب شريعة الغاب! والفقير يعمل قليلاً فيمكنه أن يجمع أو يأكل قليلاً. إلاّ أن عبارة بولس الرسول بالحقيقة مختلفة تماماً عن هذا الاستخدام المشوّه لها، فبولس يقول "من لا يريد أن يعمل لا يأكل" (٢ تس ٣، ١٠). هناك ظروف عدّة، وعديدة جداً، قد لا تسمح بتساوي فرص العمل، ليس بسبب من سوء إرادة الفقراء ولكن من سوء تنظيم، وأسبابه أكثر من أن تذكر أو تدرس في عظة. نعم، "من لا يريد أن يعمل" لا يستحق أن يأكل من تعبه ولا من تعب الآخرين.

الحالات الخاصّة في المجتمع ليست شريحة ضعيفة من البشر علينا أن نرقّق قلوب العظماء والأغنياء ليرموا فتاتاً عن موائدهم تسدّ قليلاً من حاجات هؤلاء المتألمين. البشر ذوو الحالات الخاصّة والفقراء، بسبب من عدم العدالة الاجتماعيّة، هم إخوة يحقّ لهم باستحقاق أن يقاسمونا كلّ شيء. فهم مدبّرون مثلنا لم يسمح لهم المجتمع أن تودَع بين أيديهم الأمانة الكافية بعد!

هل هناك حقّ إذن للمحتاج والمريض، حين يقدّم هو الأخير جهده وطاقاته بأن يأكل حسناً؟ في المسيحيّة الجواب هو نعم. لا يوجد "إحسان"! توجد عدالة قوامها ليست مقاييس شريعة الغاب إنّما وصيّة "المحبّة"، التي تشعر مع الآخر وليس تشفق عليه، المحبّة التي تلتزم بالوصيّة الإلهيّة وبالآخر. خطأ الغني إذن هو الاستخدام الأناني. حقّ الفقير حقيقة، وليس في لغتنا المسيحيّة "إحسان" وإنّما "حنان" وقلب إنسانيّ حيّ.

الغني الحنون، إذن، لا يمكنه ألاّ يعير انتباهاً لأي لعازر في دربه. لا يمكن للغني المسيحيّ أن يخبئ في خزانته رداءً إضافياً وأخوه عريان (باسيليوس الكبير) فهو بذلك لا يحسن التدبير، لا يمكن للمسيحيّ أن ينعم وأخوه يتألم، لا حقّ للمسيحيّ بذلك. المسيحيّ الغني هو فقير بالروح في غناه وغنيّ بالروح في خدمته و"تدبيره" ولو كان فقيراً مادياً.

فحين نكون في وفرة الخيرات - غنى علينا أن نحسن التدبير وحين تسمح الظروف أن نكون في قلة من الخيرات - فقر علينا أن نتكلّ على الله ونسعى بالصبر، كما يعني الاسم الذي اختاره يسوع في هذا المثل: لعازر أي المتكلّ على الله والصبور. ذاك الغني أدانته أنانيته وهذا الفقير لعازر برّه صبرُه وحبه لله.

هذا ما يخبرنا عنه موسى والأنبياء (الكتاب المقدس) لكي نلتزمه ونحياه ولا ننتظر أحداً من الأموات يخبرنا عن ضرورة توزيع الخيرات بعدالة ومحبّة.

آمين